العنوان الثالث عشر

الطموح

فارس الجودة، يلزمه لا محالة أن يمتطي صهوة جواد يركن إليه، ويعتمد عليه، يسمى الطموح، حين قال الشاعر بارود:

لنا فرسٌ فتحنا به الدنيا يُقال له الردى

أذن لنا أن نقول لنا فرسٌ صنعنا به الجودة، يقال له الطموح، ولا أحسب أن أحداً يجهل هذا الطموح فيحتاج إلى مزيد بسط، أو زيادة بيان.

بيد أن هناك من يتجاهل الطموح، لأنه فرس جموح، قد يلقي بصاحبه أرضاً، إن الطموح – كما قال أهل الخبرة به – ذهاب إلى أبعد من الحدود المرئية، وتجاوز للقناعة، واقتحام للمجهول، وطلب للمزيد، وتوسيع للأمل. وهذا ما جعله مرغوباً، مرهوباً.

دلت الدراسات على أنه ما من إنسان، إلاّ ولديه طموح كامنٌ، بغض النظر عن مستواه، ويمكن تفهم هذا، إذا عُلم أن الناس يدورون في فلك الأنا، والطموح كما قيل، ثلاثة أرباع الأنانية.

لعل هذا الشعور هو الذي جعل رجلاً طموحاً، يبالغ، فيقول في تعريفه للطموح، الطموح شيء إذا لم تملكه، فالموت أفضل لك من الحياة.

كأن هذا القول يذهب إلى أن الطموح ليس مسألة تكميلية، كما يقال، وإنما هو شيء ترتبط به الحياة، فمن فقده، فقد حُرم الحياة التي يتمناها الإنسان السوي الذي يتطلع إلى الرقي، والنهوض، دائماً.

ومن يتهيب صعود الجبال يعش أبد الدهر بين الحفر

شهد أهل النظر، والتبصر للطموح الشخصي بأنه ليس عيباً في ذاته، لأنه يمكن توظيفه للصالح العام، ولهذا ينبغي على المجتمع، أن يعين أصحاب الطموح، لأن منهم رواد الأمة.

إن صاحب الطموح إذا خلىَّ المجتمع، بينه وبين طموحه، ولم ينهض لمعونته، تعذَّر عليه مواصلة طريقه، فإن في الطموح إرهاقاً للنفس، وتعباً للجسم:

وإذا كانت النفوس كباراً تعبت في مرادها الأجسام

امتدح العرب قديماً الطموح، فكانوا إذا امتدحوا رجلاً، طموحاً قالوا فيه بعيد مسافة العقل، وهذا الطموح الممدوح، هو ذلكم الطموح الذي يصاحبه التزام، وعزيمة أكيدة، ووضوح، وخيال قوي يصنع الحقائق. لقد أحسنت هيلين كيلر في توصيف الطموح، حين قالت: الطموح بذرة، تنمو بماء الاجتهاد، وسماد التضحية والإخلاص.

يحسن التأكيد، على أهمية أن يبقى الطموح فضيلة، وذلك بالتفريق بينه وبين أحلام اليقظة، والأماني المغلفة بالتواني، والتي يُحسنها عامة الناس.

إذا كان المرء يُمدح بسبب طموحه، فيحسُن به أن يعلم أن للعقل حداً، ينتهي إليه، كما أن للبصر حداً، ينتهي إليه، كما قال الشافعي، وهذا الاحتياط يسهم في التفريق، بين الطموح المصاحب للوضوح، والموصل إلى الأهداف، وبين الأحلام، كما أسلفنا.

يُعين هذا الاستحضارُ صاحبَ الطموح، على أن يسلك طريق المراجعة، لا طريق التراجع، حين تبدو في طريقه العقبات، وهذا متوقع، بخاصة حين تعجز الإمكانات، عن مجاراة الطموح.

وإذا كانت النفوس كباراً تعبت في مرادها الأجسام

يسعى القوي الواثق بنفسه إلى توظيف العقبات والصعاب ليصل إلى أهدافه، في حين تعيق الضعيف، وأحسن من قال: الصخور تسد طريق الضعفاء، بينما يرتكز عليها الأقوياء، ليصلوا إلى القمة.

يكفي الطموح فضيلةً، أنه يرفع سقف التوقعات، وهو ما يعني تصويب النظر، نحو الأجود والأكمل، والصبر على الطريق الأطول، ففي نهايته تنتظر الإنجازات.

يبدو أن تجارب الكثيرين مع الطموح تعزز هذا المفهوم، وهو ما عبَّر عنه سومرموم بقوله: لعله من عجائب الحياة، أنك حين ترفض ما تراه دون مستوى طموحك، فإنك دائماً تحصل على ما تسعى إليه، ونضيف نحن وهذا بفضل الله، وتقديره.

والجد يدني كل أمر شاسع والجد يفتح كل باب مغلق

إن أولئك الرواد الذين يحملون راية التجديد، والتجويد، يلزمهم لا محالة أن يكونوا أصحاب طموح جموح، وأن يقتربوا كثيراً من الحافة، بلا تردد ولا خوف، فإن الذي يريد أن يستمتع بالمناظر الخلاّبة، فعليه أن يقترب من الحافة، كما قال أ.د. الحكيمي، ويشرح الحكيم المتنبي هذا المعنى، حين يقول:

إذا غامرت في شرف مروم فلا تقنع بما دون النجوم

فطعم الموت في أمر حقير كطعم الموت في أمر عظيم

أحسب أنه لا يتوقع الخيرُ من طموح، لا يقوده وضوح، لأن الوضوح يحتاج إلى خارطة طريق، كما يقال، فليس المهم أن يكون لدى الإنسان طموح، كما أسلفنا، فلا يكاد يخلو منه أحد.

إنما المهم أن يوجه هذا الطموح، نحو هدف معين، يعرف صاحبه الطريق الموصل إليه، ويسلكه بثبات، والأمر كما قال رالف أمرسون: إن العالم يفسح الطريق للمرء الذي يعرف إلى أين هو ذاهب.

تمتدح العرب في تراثها هذا النوع من الرجال، الذي يعرف النهاية منذ لحظة البداية، ومنه قولهم:

وأحزم الناس مَنْ لو مات من ظمأ لا يقرب الوردَ حتى يعرف الصدرا

أي لا يقدم على شيء وإن كان مضطراً إليه حتى تتبين له عواقبه.

يحسن قبل هذا، وبعده، أن يستحضر هذا الإنسان معية الله تعالى، وأن يُردد دائماً، ما قاله نبي الله موسى، عليه السلام ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ۝٦٢﴾ سورة الشعراء (الآية: ٦٢)، فإن معية الله تعالى هي رأس الأمر، وعموده، وقد أحسن الشاعر، حين قال:

إذا لم يكن عون من الله للفتى فأول ما يقضي عليه اجتهاده